مِنْ كلّ شيطانٍ مُدْبرٍ عن الخير مقبلٍ على الشرّ، مارد عات خبيث.

لا يُسْمَح لأولئك الشّياطين من الجنّ أن يُصْغُوا إلى الملأ الأعلى، وأن يستمعوا لملائكة السّماء الّتي ينتهي إليها بإذن الله تعالى شيءٌ من أمور الغيب، تتناقله بينها، ويجرى على ألسنتها. إنّ الشّيطان المارد حريصٌ دائماً على خطف الكلمة يسمعها من السّماء، وإنّه يُقْذَف من كلّ جوانب السّماء بالشّهب، ويُطْرَد ويُدْحَر. ولّهؤلاء المردة من الشّياطين عذابٌ دائم.

إنهّم لا يصغون إلى الملأ الأعلى لأجل دحرهم وطردهم إلاّ من خطف الخطفة، واسترق الكلمة، فتبعه ولحقه كوكبٌ مضيء، يثقبه بضوئه وينفذ فيه. وربّما استطاع الشّيطان المارد أن يلقى بالكلمة المسروقة لّلذى تحته قبل أن يدركه الشّهاب، وربّما لم يستطع. وهذه الكلمة المسروقة يلقيها الشّيطان المارد الآخر إلى الكاهن أو السّاحر فيضيف إليها مائة كَذْبة، كما جاء في الحديث الصّحيح. وفي أثناء دراستنا للآيات الكريمات ١٦-١٨ من سورة الحِجر الكريمة ذكرنا الحديث من صحيح البخاريّ في هذا المعنى وشرحناه اعتماداً على فتح الباري في المقام الأوّل(١) وممّا جاء في الحديث المذكور: «ومسترقو السّمع، هكذا واحدٌ فوق آخر. ووصف سفيان (أيْ ابن عيينة) بيده وفرّج بين أصابع يده اليمنى، نَصَبَها بعضها فوق بعض. فربّما أدرك الشّهابُ المستمع قبل أن يرمى بها إلى صاحبه فيحرقه. وربّما لم يدركه حتّى يرمي بها إلى الّذى يليه، إلى الّذى هو أسفل منه، حتّى يلقوها إلى الأرض - وربّما قال سفيان: حتّى تنتهى إلى الأرض - فتُلْقَىَ على فم السّاحر، فيكذب معها مائة كَذْبة»(٢).

---

(١) انظر التّفسير البسيط ١٤/ ٤٣-٤٥ والحديث في فتح البارى ٨/ ٣٨٠ برقم ٤٧٠١

(٢) فتح البارى ٨/ ٣٨٠ حديث رقم ٤٧٠١.

(٢)
« الأولياء في الدّنيا من منكري البعث أعداء في الآخرة»
الآيات (١١ - ٣٩)

فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا
أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ۚ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴿١١﴾ بَلْ عَجِبْتَ
وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا۟ لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ
﴿١٤﴾ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا
أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ
﴿١٨﴾ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا
يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾
۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ
ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾
مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾

فاستفتهم : فسل يا محمّد هؤلاء المشركين الّذين ينكرون البعث بعد الممات، والنّشور بعد البلاء(١) واستخبرهم تقريراً أو توبيخاً(٢).

أهم أشدّ خلقاً أمّن خلقنا : أخلقهم أشدّ أم خلق من عَدَدْنا خلقه من الملائكة والشّياطين والسّماوات والأرض(٣).

من طينٍ لازب : لاصقٍ(٤) ولازقٍ(٥) ولازم(٦) وإنّما وصفه جلّ ثناؤه

(١) تفسير الطّبرى ٢٣/٢٨ وتفسير ابن كثير ٧/ ٥.
(٢) الجلالين وتفسير الطّبرى ٢٣/٢٨.
(٣) تفسير الطّبرى ٢٣/٢٨.
(٤) تفسير الطّبرى ٢٣/٢٨.
(٥) تفسير الطّبرى ٢٣/٢٩
(٦) تفسير الطّبرى ٢٣/٢٨

باللّزوب لأنّه ترابٌ مخلوطٌ بماء. وكذلك خُلِقَ ابن آدم من ترابٍ وماءٍ ونارٍ وهواء. والتّراب إذا خُلِط بماء صار طيناً لازبا. والعرب تبدل أحياناً هذه الباءَ ميماً فتقول طينٌ لازم(١) ومن اللّازب قول نابغة بني ذبيان :

ولا يحسبون الخير لا شرّ بعده ** ولا يحسبون الشّر ضربةَ لازب(٢)

بل عجبت ويسخرون : بل عجبت يا محمّد من تكذيب هؤلاء المنكرين للبعث، وأنت موقنٌ مصدّقٌ بما أخبر الله به من الأمر العجيب، وهو إعادة الأجسام بعد فنائها. وهم بخلاف أمرك، مِنْ شدّة تكذيبهم يسخرون ممّا تقول لهم من ذلك(٣).

وإذا ذكّروا لا يذكرون : وإذا ذكّر هؤلاء المشركون حجج الله عليهم ليعتبروا ويتفكّروا فينيبوا إلى طاعة الله لا يذكرون ولا ينتفعون بالتّذكير فيتذكّروا(٤).

وإذا رأوا آية : وإذا رأوا حجّةً من حجج الله عليهم ودلالة على نبوّة نبيّه محمّد ﷺ(٥).

يستسخرون : يسخرون منها ويستهزئون(٦).

وقالوا إن هذا إلاّ سحرٌ مبين : وقال هؤلاء المشركون من قريش بالله لمحمّد ﷺ : ما هذا الّذي جئتنا به إلاّ سحرٌ مبين، يبين لمن تأمّله ورآه أنّه سحر(٧).

أئذا متنا وكنّا تراباً وعظاماً أئنّا لمبعوثون : الهمزة للاستفهام الإنكاريّ في

---

(١) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٢٨.

(٢) مختار الشّعر الجاهلي ١/ ١٦٢ تحقيق مصطفى السّقا الطّبعة الثّانية ١٣٦٨هـ - ١٩٤٨م حلبى القاهرة. وتفسير الطّبرى ٢٣/ ٢٨

(٣) تفسير ابن كثير ٧/ ٦.

(٤) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٢٩.

(٥) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٢٩.

(٦) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٣٠.

(٧) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٣٠.

الموضعين(١).

أو آباؤنا الأوّلون : الهمزة للاستفهام الإنكاريّ. وخبر المبتدأ : ﴿آباؤنا﴾ محذوف تقديره مبعوثون(٢).

داخرون : صاغرون(٣).

فإنّما هي زجرةٌ واحدة: فإنّما هي صيحةٌ واحدة، وذلك هو النّفخ في الصّور(٤).

فإذا هم ينظرون : فإذا هم شاخصةٌ أبصارهم ينظرون إلى ما كانوا يوعدونه من قيام السّاعة ويعاينونه(٥).

يا ويلنا : يا هلاكنا(٦).

يوم الدّين : يوم الجزاء والمحاسبة، ويوم يدين الله فيه العباد بأعمالهم(٧).

هذا يوم الفصل الّذى كنتم به تكذّبون : هذا يوم فصل الله بين خلقه بالعدل من قضائه الّذى كنتم به تكذّبون في الدّنيا فتنكرونه(٨).

أُحشروا الّذين ظلموا : اجمعوا الّذين كفروا بالله في الدّنيا وعَصَوْه(٩).

وأزواجهم : أشياعهم(١٠) وأشباههم(١١) وأمثالهم(١٢).

---

(١) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١١/ ٣٦.

(٢) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١١/ ٣٦.

(٣) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٣٠.

(٤) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٣٠.

(٥) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٣٠.

(٦) الجلالين.

(٧) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٣٠.

(٨) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٣٠.

(٩) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٣١.

(١٠) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٣١.

(١١) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٣١.

(١٢) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٣١.

وما كانوا يعبدون من دون الله : من الآلهة(١).

فاهدوهم : فوجّهوهم(٢) ودلّوهم وسوقوهم(٣) وأرشدوهم(٤).

إلى صراط الجحيم : إلى طريق الجحيم(٥).

وقفوهم : احبسوهم. أي احبسوا أيّها الملائكة هؤلاء المشركين الّذين ظلموا أنفسهم وأزواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله من الآلهة(٦).

إنّهم مسئولون : عن جميع أقوالهم وأفعالهم(٧).

ما لكم لا تناصرون: ما لكم أيّها المشركون بالله لا ينصر بعضكم بعضا(٨) مضارع حذفت منه إحدى التّاءين(٩).

بل هم اليوم مستسلمون : لأمر الله فيهم وقضائه، موقنون بعذابه(١٠).

فاسأل أيّها الرّسول الكريم والنّبيّ العظيم كفّار مكّة منكرى البعث: أهم أشدّ خلقاً أمّن خلقنا من الملائكة والشّياطين وما خلقنا من السّماوات والأرض وما فيهن ومن فيهنّ؟ إنّ خلق السّماوات والأرض أكبر من خلق النّاس بنصّ القرآن الكريم. قال عزّ من قائل(١١) : ﴿لخلق السّماوات والأرض أكبر من خلق النّاس ولكنّ أكثر النّاس لا يعلمون﴾ إنّ كفّار مكّة يعترفون بأنّ خلق السّماوات والأرض أكبر من

---

(١) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٣١.

(٢) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٣١.

(٣) الجلالين.

(٤) تفسير ابن كثير ٧/ ٧.

(٥) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٣١.

(٦) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٣١.

(٧) الجلالين.

(٨) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٣٢.

(٩) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١١/ ٣٩.

(١٠) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٣٢.

(١١) سورة غافر ٥٧.

خلقهم فلماذا لا يرتّبون على هذا الاعتراف النّتيجة الصّحيحة بالإيمان بالبعث بعد الموت، لأنّ عندهم الدّليل على القدرة المطلقة للذّات العليّة وهو خلق السّماوات والأرض الأكبر من خلقهم. إنّ الله تعالى الّذى خلق السّماوات والأرض خلق كفّار مكّة في هيئة أبينا آدم عليه السّلام من طينٍ لزجٍ لازق. وإنّ القادر على الخلق ابتداءً قادرٌ على الخلق عودة، وهذا بدهيّ، فعلى كفّار مكّة ومن شاكلهم أن يؤمنوا بالبعث ويعملوا من أجل يوم القيامة.

بل عجبت يا محمّد من إنكار كفّار مكّة البعث مع وضوح الأدلّة وكفايتها، وهم يسخرون ممّا تقول لهم عن البعث. وإذا ذُكّروا بآيات الله تعالى الواضحات البيّنات لا يذكرون ولا يتّعظون. وإذا رأوا آية دالّةً على وحدانيّة الله تعالى وعلى نبوّة محمّد ﷺ يستهزئون ويسخرون. وقالوا ما هذا الّذى جاءنا به محمّد من قرآن إلاّ سحرٌ يبين لمن تأمّله ورآه أنّه سحر، وذلك لقدرته على أن يفرّق بين المرء وأعزّ أحبابه.

وسأل كفّار مكّة على سبيل الإنكار: أئذا متنا وكنّا تراباً وعظاماً أئنّا مبعوثون من قبورنا أحياء مرّةً أخرى أو آباؤنا الأوّلون، الأكثر عراقةً في القِدَم والفناء!.

قل يا محمّد لكفّار مكّة المنكرين للبعث: نعم سوف تبعثون وأنتم صاغرون. فإنّما السّاعة زجرةٌ واحدةٌ وصيحةٌ واحدةٌ يطلقها إسرافيل عليه السّلام، وهي الصيحة الثّانية الّتى تحيى الخلائق بإذن الله تعالى، فإذا هم ينظرون إلى ماكانوا يوعدونه من قيام السّاعة.

وقال الكافرون آنذاك يا هلاكنا هذا يوم الحساب والجزاء. هذا يوم الفصل بين الخلق بالعدل الّذى كنتم به تكذّبون.

ويقال لملائكة العذاب: اجمعوا الّذين أشركوا بالله تعالى في الحياة الدّنيا، وأمثالهم وأشياعهم، وما كانوا يعبدون من دون الله تعالى من آلهةٍ مزعومةٍ، وسوقوهم وأرشدوهم إلى طريق جهنّم. واحبسوهم أجمعين إنّهم مسئولون عن أقوالهم وأفعالهم في الحياة الدّنيا.

ويُسْأل أولئك المنكرون للبعث على جهة التّقريع والتّوبيخ : ما لكم أيّها المنكرون للبعث في الحياة الدنيا المتعاونون على الإثم المتناصرون على العدوان لا تتناصرون يوم القيامة! .

الحقيقة أنّ منكرى البعث مستسلمون يوم القيامة لقضاء الله تعالى موقنون بعذابه، مقتنعون بكلّ ما ينالهم من عذاب، ويلحقهم من سوء.

وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ

عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴿٢٨﴾
قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ ۖ
بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا ۖ إِنَّا لَذَائِقُونَ ﴿٣١﴾
فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ
﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ
لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا
لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّكُمْ
لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾

يتساءلون : يتلاومون ويتخاصمون(١).

إنّكم كنتم تأتوننا عن اليمين: عن الجهة الّتى كنّا نأمنكم منها لحلفكم أنّكم على الحقّ فصدّقناكم واتّبعناكم(٢).

بل كنتم قوماً طاغين : بل كنتم أيّها المشركون قوماً طاغين على الله متعدّين إلى ما ليس لكم التّعدّى إليه من معصية الله وخلاف أمره(٣).

(١) الجلالين.
(٢) الجلالين.
(٣) تفسير الطبرى ٢٣/ ٣٣.

فحقّ علينا قول ربّنا : فوجب علينا عذاب ربّنا(١).

لشاعرٍ مجنون : أي لأجل قول محمّد(٢).

بل جاء بالحقّ وصدّق المرسلين : بل هو لله نبيّ. جاء بالحقّ من عنده وهو القرآن الّذى أنزله عليه، وصدّق المرسلين الّذين كانوا من قبله(٣).

وأقبل بعض منكري البعث على بعضٍ يتلاومون، والأتباع على المتبوعين يتخاصمون. قال الأتباع للمتبوعين : إنّكم كنتم تأتوننا من الجانب الّذى كنّا نأمنكم منه. تصرفوننا عن الخير إلى الشرّ، وتحلفون لنا أنّكم على صواب، وأنّه ليس ثمّة بعثٌ ولا حساب، ولا ثواب ولا عقاب. فقضينا عمرنا في اللّهو واللّعب، وتكشّفت لنا حقيقة البعث، ولكن بعد فوات الأوان، حيث لا ينفع النّدم. قال الّذين اتُّبِعُوا للّذين اتَّبعوا بل لم تكونوا مؤمنين أصلاً، وما كان لنا عليكم من قوّةٍ ولا حجّةٍ كي نرغمكم بهما على الكفر، بل كنتم قوماً طاغين على الله تعالي، متعدّين على حقّ العبادة الّذى له وحده جلّ وعلا دون سواه، فأشركتم، وعبدتم الأصنام والأوثان.

لقد حقّ علينا جميعاً قول ربّنا جلّ وعلا(٤) : ﴿لأملأنّ جهنّم من الجنّة والنّاس أجمعين﴾ ووجب علينا أن نذوق العذاب. إنّا أغويناكم لأنّا كنّا غاوين، وصرفناكم عن الهدى لأنّا كنّا ضالّين. إنّهم جميعاً يوم القيامة في العذاب مشتركون، لأنّهم ارتكبوا الشّرك، وهو الذّنب الّذى لا يغفره الله تعالى.

وكما نال هؤلاء المشركون العذاب الأليم، ناله المجرمون أمثالهم في كلّ زمانٍ ومكان. إنّهم كانوا إذا قيل لهم قولوا لا إله إلا الله يستكبرون أن يقولوا هذه الكلمة، ويستنكفون أن يكونوا عباداً لله تعالى. لقد كان كفّار مكّة ـ على سبيل

---

(١) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٣٣.

(٢) الجلالين.

(٣) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٣٤.

(٤) سورة هود ١١٩ وسورة السّجدة ١٣.

المثال ـ حينما يدعوهم الرّسول ﷺ إلى التوحيد كانوا يقولون في أسلوب الاستفهام الإنكاريّ: أئنّا لتاركو عبادة آلهتنا من الأصنام والأوثان لأجل محمّدٍ الّذى يدعونا إلى توحيد الله تعالى! إن القرآن ليس سوى ضربٍ من الشعر، وإن محمّداً ليس سوى شاعرٍ مجنون! ﴿كبرت كلمةً تخرج من أفواههم إن يقولون إلاّ كذبا﴾(١).

وإنّ الحقّ جلّ وعلا يبرّىء حبيبه ﷺ من افتراء المشركين. إنّ محمّداً ﷺ إنّما جاء بالحقّ، وهو القرآن الكريم، الموحى إليه من ربّ العالمين، وإنّ محمّداً ﷺ قد صدّق المرسلين السّابقين الّذين أرسلهم الله تعالى بدين الإسلام لله تعالى ربّ العالمين. إنّه عليه الصّلاة خاتم النّبيّين، وأشرف المرسلين، وزعيم أولى العزم من الرّسل، عليهم صلوات الله تعالى وسلامه أجمعين.

وإنّكم أيّها المشركون في كلّ زمانٍ ومكان لذائقون يوم القيامة العذاب الأليم، وما تنالون إلاّ جزاء ما كنتم تعملون من سيّئات.

---

(١) سورة الكهف ٥.

(٣)

« ثواب العاملين ليوم القيامة، وعذاب المنكرين للبعث »

الآيات (٤٠ ـ ٧٤)

إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾
فَوَٰكِهُ ۖ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ
﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ
﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ
ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾

إلاّ عباد الله المخلصين : إلاّ عباد الله الّذين أخلصهم يوم خلقهم لرحمته وكتب لهم السّعادة في أمّ الكتاب فإنهم لا يذوقون العذاب لأنهّم أهل طاعة الله وأهل الإيمان به(١).

على سررٍ متقابلين : بعضهم يقابل بعضاً ولا ينظر بعضهم في قفا بعض(٢).

يطاف عليهم بكأس : الكأس عند العرب كلّ إناءٍ فيه شراب، فإن لم يكن فيه شرابٌ لم يكن كأساً ولكنّه يكون إناءً(٣) والكأس مؤنّثة(٤) قال الضّحاك : كلّ كأسٍ في القرآن فهو خمر(٥).

من معين : المعين الماء الجاري على وجه الأرض(٦) أي من خمرٍ يجرى على وجه الأرض كأنهار الماء(٧) أي بخمرٍ من أنهارٍ جارية، لا يخافون انقطاعها ولا فراغها(٨).

(١) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٣٤.
(٢) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٣٤.
(٣) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٣٤.
(٤) المعجم الوسيط : «كأس» وتفسير الطّبرى ٢٣/ ٣٤.
(٥) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٣٤.
(٦) انظر لسان العرب : «معن».
(٧) الجلالين.
(٨) تفسير ابن كثير ٧/ ١٠.

بيضاء : خمر بيضاء(١).

لذّة : لذيذة(٢) يلتذّها شاربوها(٣) أي طعمها طيّبٌ كلونها(٤).

لا فيها غَوْلٌ : عن قتادة : ليس فيها وجع بطنٍ ولا صداع رأس(٥) ولا أذى فيها ولا مكروه على شاربيها في جسمٍ ولا عقلٍ ولا غير ذلك(٦) والغَوْل إهلاك الشّيء من حيث لا يُحَسّ به. يقال : غال يغول غَوْلاً، واغتاله اغتيالاً. قال تعالى في صفة خمر الجنّة: ﴿لا فيها غَوْل﴾ نفياً لكلّ ما نبّه عليه بقوله(٧) : ﴿وإثمهما أكبر من نفعهما﴾. وبقوله(٨) : ﴿رجسٌ من عمل الشّيطان فاجتنبوه﴾(٩).

ولا هم عنها يُنْزَفون : أي لا يسكرون(١٠) والنّزيف والمنزوف: السكران المنزوف العقل (١١)يقال : نَزَف الماء نزحه كلّه من البئر شيئاً بعد شيء. ومنه قيل : سكرانُ نزيفٌ نُزِف فهمه بسكره(١٢).

وعندهم قاصرات الطّرف : هنّ النّساء اللّواتي قصرن أطرافهنّ على

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ٧/ ١٠ والجلالين.

(٢) لسان العرب : «لذّ» والجلالين.

(٣) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٣٤.

(٤) تفسير ابن كثير ٧/ ١٠.

(٥) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٣٥.

(٦) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٣٥.

(٧) سورة البقرة ٢١٩.

(٨) سورة المائدة ٩٠.

(٩) انظر مفردات الرّاغب الأصفهاني : «غول» ٢/ ٤٧٧.

(١٠) لسان العرب : «نزف» ولا تذهب عقولهم. لسان العرب : «نزف».

(١١) لسان العرب : «نزف».

(١٢) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «نزف» ٢/ ٦٣١.

بعولتهنّ، ولا يردن غيرهم، ولا يمددن أبصارهنّ إلى غيرهم(١).

عين : يعنى بالعين النُّجْل العيون عظامها، وهي جمع عيناء. والعيناء المرأة الواسعة العين عظيمتها، وهي أحسن ما تكون من العيون(٢).

كأنّهنّ بيضٌ مكنون : كأنّهنّ في بياضهنّ بيضٌ مستورٌ في كِنّ. والكِنّ ما يُحفظ فيه الشّيء. وخُصّ كَنَنْتُ بما يُستَر ببيتٍ أو ثوبٍ وغير ذلك من الأجسام(٣) قال ابن زيد : هو البيض الّذى يَكُنُّه الرّيش مثل بيض النّعام، الّذى قد أكنّه الرّيش من الرّيح فهو أبيض إلى الصّفرة، فكأنّه يَبْرُق، فذلك المكنون(٤) والّذى لا يصل إليه غبار، ولونه وهو البياض في صفرة أحسن ألوان النّساء(٥) والعرب تقول لكلّ مصونٍ مكنونٌ ما كان ذلك الشّيء، لؤلؤاً كان أو بيضاً أو متاعا(٦).

بعد أن بيّن السّياق عذاب منكرى البعث يوم القيامة، يتحوّل هنا إلى الحديث عن المؤمنين وثوابهم، فيبدأ بتقرير الاستثناء لعباد الله تعالى، الّذين اصطفاهم الله تعالى يوم خلقهم لرحمته، والّذين أخلصوا الدّين لله تعالى. إنّ لعباد الرّحمن هؤلاء رزقاً معلوماً في الجنّة، يُرمَز له بالفاكهة، الّتي يُتَفكّه بها ويُتَلذّذ، والّتى تَعْنى ضِمْناً تمام النّعيم.

وهؤلاء العباد محلّ إكرام الحقّ جلّ وعلا لهم في جنّات النّعيم، وموضع الحفاوة البالغة بهم، بسبب أعمالهم الصّالحة، في الأيّام الخالية، في دار الدّنيا. ومن مظاهر ذلك الإكرام أنّهم يجلسون على السّرر العالية يقابل بعضهم بعضاً، ولا ينظر بعضهم قفا بعض. ويطوف عليهم ولدانٌ لهم كأنّهم لؤلؤٌ منثور، بكئوس مترعةٍ من أنهار خمر الجنّة. وخمر الجنّة خاليةٌ من كلّ آفات خمر الدّنيا شكلاً

(١) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٣٦.

(٢) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٣٦.

(٣) انظر مفردات الرّاغب الأصفهاني : «كنّ» ٢/ ٥٦٩.

(٤) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٣٧.

(٥) الجلالين.

(٦) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٣٧.

ومضمـوناً. أمّا لونها فخالص البيـاض، وكأنّها في هذه الصّفة الماء العـذب النّمير الّذى يكتسب لون الإنـاء الّذى يحمله. وأمّا طعـمها فلذيذٌ للـشّاربين، ولا ينغّص تلك اللّذّة الخالصـة شيءٌ من عيوب خمر الـدّنيا من جهة الطّعم. وكـما كان لون خمر الآخرة يسرّ النّاظر، وكان طعمها يَلَذُّه الشّارب، ينبغى أن يكون ريحها طيّبا. وتتوّج نعوت خمـر الجنّة بأنّ من يشربها تكون متعته خـالصة، فليس ثمّة شيءٌ من أذىً للجسم كصداع الرّأس، ولا للعقل، فلا يسكرون، ولا يفقدون صوابهم، ولا تستنزف تلك الخمر عقـول شاربيها شيئاً فشيئـاً وحالاً فحالاً. إنّ النّزيف في الدّنيا هو السّكران الّذى نزفت الخـمـر عقله، وذلك على غـرار النّزيف الّذين نَزَف دَمُـه وخرج تبـاعاً حتّى ضـعف. إنّ خمر الجنّة لا تَنْزف العـقل ولا تستنزف شيـئاً من قواه. وهكذا يسلم كلٌّ من الجسد والعقل من خمر الجنّة مهما كثرت كمّيّتها. وإلى انتفاء الصّـداع من الرّأس والتّغطية للعقل مِنْ تناول خمـر الجنّة أشار قول الحقّ جلّ وعلا في أثناء الحـديث عن السّابقين في سورة الواقعـة(١) : ﴿يطوف عليهم ولدانٌ مخلّدون. بأكواب وأباريق وكأسٍ من معين. لا يُصَدّعون عنها ولا يُنْزِفون﴾.

ويتمّ نعـيم أهل الجنّة بزوجـاتهم اللّاتي يَقْصـرْن نظر عـيونهنّ الجـميلات الواسعـات على أزواجهنّ الّذين يملأون عـيونهنّ لذّة، ونفـوسهنّ بهـجة. وهكذا تطيب عيـون الزّوجات في الجنّة شكلاً ومضـموناً كما طابت خـمر الجنّة. وتطيب كذلك الـزّوجات شكلاً وجوهـرا. إنّ لونهنّ البيـاض المشوب بصفـرة، وذلك في عرف العرب الّذين نزل القرآن الكريم بلسـانهم أجمل ألوان نساء الدّنيا. وإلى هذا اللّون المفضّل من النّساء أشار الشاعر الأوسيّ الجاهليّ قيس بن الخطيم في قوله :

تغترق الطّرف وهْي لاهيةٌ ** كأنّما شفّ وَجْهَها نُزُف(٢)

وجـاء في شرح البـيت في لسان العـرب(٣) : «قـوله تغتـرق الطّرف يعنى

(١) الآيات ١٧-١٩.

(٢) ديوان قيس بن الخطيم ١٠٤ تحقيق الدّكتور نـاصر الدّين الأسد. الطّبعة الأولى القاهرة ١٣٨١هـ ١٩٦٢م الطّبعة الثانية بيروت ١٣٨٧هـ ١٩٦٧م ولسان العرب : «نزف».

(٣) «غرق» وانظر الدّيوان ١٠٤ و ١٠٥.

امرأة. تغترق وتستغرق واحد، أي تستغرق عيون النّاس بالنّظر إليها، وهي لاهيةٌ أي غافلة. كأنّما شَفَّ وجهَها نُزُف: معناه أنّها رقيقة المحاسن، وكأنّ دمها ودم وجهها نُزف. والمرأة أحسن ما تكون غِبّ نفاسها لأنّها ذهب تهيّج الدّم، فصارت رقيقة المحاسن. والطَّرف ههنا: النّظر لا العين. ويقال طرف يطرف طَرْفاً إذا نظر. أراد أنّها تستميل نظر النّظّار إليها بحسنها وهي غير محتفلةٍ ولا عامدةٍ لذلك، ولكنّها لاهية، وإنما يفعل ذلك حُسْنُها».

إنّ الزّوجات القاصرات الطّرف على أزواجهنّ في الجنة كأنّهنّ في صفاء بياض اللّون، وفي العفاف والصّون، البيض المكنون المستور بالرّيش. إنّ بيض النعام ـ مثلاً ـ مستورٌ بريشه فلا يصل إليه غبارٌ ولا هواء، فيزداد بياضه المشوب بصفرةٍ نُصوعا، ولا تصل إليه الأيدي، فهو في حِصْنٍ حصين، وحِرْزٍ أمين. وهكذا طاب الحور العين خَبَراً وخُبْرا، شكلاً وجوهراً.

فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ
بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾
يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَئِنَّا
لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ
ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي
لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾

فأقبل بعضهم على بعضٍ يتساءلون: فأقبل بعض أهل الجنّة على بعضٍ يسأل بعضهم بعضاً (١) عمّا مرّ بهم في الدّنيا (٢).

---

(١) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٣٧.

(٢) الجلالين.

قرين : مصاحبٌ ينكر البعث(١) وشريكٌ كان له من بنى آدم(٢).

يقول أئنّك لمن المصدّقين : يقول لي تبكيتاً(٣).

لمدينون: لمحاسبون ومجزيّون بعد مصيرنا عظاماً ولحومنا تراباً(٤).

هل أنتم مطّلعون : هل أنتم مطّلعون معي في النّار لعلّى أرى قريني(٥).

فاطّلع : ذلك القائل من بعض كوى الجنّة(٦).

في سواء الجحيم : في وسط الجحيم(٧).

تالله : التّاء تاء القَسَم للجرّ. لفظ الجلالة مجرورٌ بالتّاء متعلّق بفعلٍ محذوف تقديره أُقْسم(٨).

إن كدت لتردين : إن مخفّفة من الثّقيلة واجبة الإهمال. اللّام هي الفارقة بين إن المخفّفة وإن النّافية، زائدة. والنّون في: تردين، للوقاية. والياء المحذوفة للتّخفيف مفعولٌ به(٩) إن كدت في الدّنيا لتهلكني بصدّك إيّاي عن الإيمان بالبعث والثّواب والعقاب(١٠).

من المحضرين : معك في العذاب(١١).

---

(١) الجلالين.

(٢) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٣٨.

(٣) الجلالين.

(٤) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٣٩.

(٥) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٣٩ والجلالين.

(٦) الجلالين.

(٧) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٣٩.

(٨) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١١/ ٤٨.

(٩) انظر الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١١/ ٤٨.

(١٠) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٤٠.

(١١) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٤٠.

في أثناء أحد لقاءات فريقٍ من المؤمنين في الجنّة، أقبل بعضهم على بعضٍ، وسأل بعضهم بعضاً عمّا مرّ بهم في الدّنيا. قال واحدٌ منهم لأصحابه في الجنّة: إنّي كان لي في الدّنيا رفيقٌ منكرٌ للبعث يقول لي على سبيل التّبكيت والتّوبيخ: أئنّك لمن المصدّقين بالبعث بعد الموت. أئذا متنا وكانت أجسادنا تراباً وعظاماً ورفاتاً أئنّا لعائدون أحياء ومحاسبون فمثابون أو معاقبون! لقد كان منّي الجواب بالإيجاب، وكان منه الإصرار على الإنكار فافترقنا ومضى كلٌّ في الطّريق الّذى اختار.

ومن إحدى كوى الجنّة المطلّة على النّار نظر وقال لأصحابه في الجنّة هل أنتم مطّلعون معي على أهل النّار ومطلّون. فاطّلع على أهل النّار وأطّل يبحث عن صاحبه في الدّنيا المنكر للبعث فعرفه بإذن الله تعالى من بين أصحاب النّار، ورآه في وسط نار جهنّم. قال والله الّذي لا اله إلا هو لقد أوشكتَ في الدّنيا أن تجرّني معك إلى شفير جهنّم فأُنْكِرَ البعث كما أنكرت، وأتمتع في الدّنيا، وآكل كما تأكل الأنعام، ولا أعمل ليوم القيامة. إنّه لولا نعمة ربّى عزّ وجلّ عليّ، وتثبيته لي على المحجّة البيضاء، لكنت من المحضرين معك في العذاب، المشاركين لك المكوث في وسط نار جهنّم.

أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا
ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾
لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾

أفما نحن بميّتين : الهمزة للاستفهام. والفاء عاطفة. أي قال أهل الجنّة : أنحن مخلّدون فما نحن بميّتين. ما: نافية عاملة عمل ليس، ميّتين: مجرور لفظاً منصوب محلاً خبر ما(١).

لمثل هذا فليعمل العاملون : يقول تعالى ذكره: لمثل هذا الّذى أعطيت هؤلاء

(١) انظر الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١١/ ٤٩.

المؤمنين من الكرامة في الآخرة فليعمل في الدّنيا لأنفسهم العاملون ليدركوا ما أدرك هؤلاء بطاعة ربّهم(١).

يعلم أصحاب الجنّة أنّهم بفضل الله تعالى خالدون في جنّات النّعيم، حاصلون على الثّواب العظيم. وتعبيراً عن امتنانهم لهذا الفضل العظيم من الله تعالى هم يسألون على سبيل التّعبير عن الشّكر لله تعالى وعلى سبيل التّلذّذ: أنحن خالدون في الجنّة فما نحن بميّتين إلاّ موتتنا الأولى في الدّنيا؟ ويكون الجواب بالإيجاب. أنحن مثابون ومتنعّمون وما نحن بمعذّبين مطلقا؟ ويكون الجواب بالإيجاب كذلك.

ويكون ردّ الفعل لدى أصحاب الجنّة القول الّذى يدلّ على فرط الامتنان: إنّ هذا النّعيم المقيم الّذي نحن فيه لهو الفوز العظيم، والنّجاح الكبير.

ويكون الحثّ من الحقّ جلّ وعلا للنّاس أجمعين على أن يكون لهم مثل ذلك الفوز العظيم في جنّات النّعيم القول: ﴿لمثل هذا فليعمل العاملون﴾.

إنّ على النّاس أجمعين أن يؤمنوا، ويعملوا صالحاً، ويستبقوا الخيرات، ويريدوا بأعمالهم الصّالحة وجه ربّهم الأعلى، كي ينالوا مثلما نال أصحاب الجنّة من الفوز العظيم، والنّعيم المقيم.

---

(١) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٤٠.

أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ
ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ
تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ
﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ
عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾
إِنَّهُمْ أَلْفَوْا ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾
وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم
مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾
إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾

نزلاً : النّزل ما يُعَدّ للنّازل من الزّاد(١).

الزّقّوم : شجرةٌ مرّةٌ كريهة الرّائحة ثمرها طعام أهل النّار(٢).

إنّا جعلناها فتنةً للظّالمين : ذُكر أنّ الله تعالى لمّا أنزل هذه الآية قال المشركون: كيف ينبت الشّجر في النّار، والنّار تحرق الشّجر، فقال الله : ﴿إنّا جعلناها فتنةً للظّالمين﴾ (٣)قال تعالى في سورة الإسراء(٤) : ﴿وإذ قلنا لك إنّ ربّك أحاط بالنّاس. وما جعلنا الرّؤيا الّتى أريناك إلاّ فتنةً للنّاس والشّجرةَ الملعونةَ في القرآن. ونخوّفهم فما يزيدهم إلاّ طغياناً كبيراً﴾ روى البخاري(٥) :«عن ابن عبّاس رضي الله عنهما: ﴿وما جعلنا الرّؤيا الّتى أريناك إلاّ فتنةً للناس﴾ قال: هي

(١) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «نزل» ٢/ ٦٣٢.

(٢) المعجم الوسيط : «زقم».

(٣) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٤٠.

(٤) الآية ٦٠.

(٥) فتح الباري ٨/ ٣٩٨ حديث رقم ٤٧١٦.

رؤيا عينٍ أُرِيَها رسول الله ﷺ ليلة أسري به ﴿والشّجرةَ الملعونةَ في القرآن﴾ قال: شجرة الزّقّوم».

إنّها شجرةٌ تخرج في أصل الجحيم: غُذيت بالنّار ومنها خُلِقَت(١) وأصل الجحيم قعر جهنّم، وأغصانها ترتفع إلى دركَاتها(٢) أي أصل منبتها في قرار النّار(٣).

طلعها: أي ما طلع من هذه الشّجرة(٤) والطَّلْعُ غِلافٌ يشبه الكُوز ينفتح عن حَبٍّ منضود فيه مادّة إخصاب النّخلة(٥).

كأنّه رءوس الشّياطين: كأنّ طلع هذه الشّجرة في قبحه وسماجته رءوس الشّياطين(٦).

لشوباً: لخلطاً(٧) ومزجاً(٨).

من حميم: أي ماء حار يشربونه فيختلط بالمأكول منها(٩).

ثمّ إنّ مرجعهم لإلى الجحيم: ثمّ إنّ مآبهم ومصيرهم لإلى الجحيم(١٠) يفيد أنّهم يخرجون منها لشرب الحميم وأنّه خارجها(١١).

---

(١) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٤١.

(٢) الجلالين. والدّرك بسكون الرّاء وفتحها أحطّ الدّرجات.

(٣) تفسير ابن كثير ٧/ ١٧.

(٤) انظر مفردات الرّاغب الأصفهاني: «طلع» ٢/ ٣٩٩.

(٥) المعجم الوسيط: «طلع».

(٦) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٤١.

(٧) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٤١.

(٨) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٤٢.

(٩) الجلالين وانظر تفسير الطّبرى ٢٣/ ٤١.

(١٠) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٤٢.

(١١) الجلالين.

ألْفَوْا : وجدوا(١).

يُهْرَعون : يسرعون(٢) كهيئة الهرولة(٣) يقال : هَرِع وأهرع ساقه سوقاً بعنف وتخويف(٤) والهَرَع والهُراع والإهراع: شدّة السّوق وسرعة العَدْو. وقد هُرِعوا وأُهرعوا. ويُهْرَعون: أي يَسْعَوْن عِجالاً. ويُستحثُّون، كأنّه يحث بعضهم بعضاً(٥).

أذلك النّعيم الّذى يرفل فيه المؤمنون في الجنّة خيرٌ أم شجرة الزّقّوم المُرّةُ الكريهةُ الرّائحة الّتى يأكل أهل النّار ثمرها الخبيث! والجواب معروفٌ بطبيعة الحال: ﴿لا يستوى أصحاب النّار وأصحاب الجنّة. أصحاب الجنّة هو الفائزون﴾(٦).

إنّ الحقّ جلّ وعلا جعل شجرة الزّقّوم امتحاناً للمشركين وابتلاءً، فقد استنكروا أن تنبت الشّجرة في النّار، لأنّ الشّجرة خشب، والنّار تأكل الخشب. وليس استنكار المشركين إلاّ امتداداً لصغر عقولهم وقصر إدراكهم اللّذين بسببهما قد أنكروا البعث . إنّ المشركين لا يستطيعون أن يفهموا، أو لا يريدون أن يفهموا أنّ الله تعالى قادرٌ على إعادة الحياة إلى الأموات يوم القيامة وعلى إنبات شجرةٍ من النّار.

إنّ شجرة الزّقّوم من نوعٍ خاصّ. وقد بيّن السّياق هذه الخصوصيّة. إنّها شجرةٌ يخرج ساقها في قاع جهنّم، وتضرب جذورها في أعماق النّار، وتنتشر أغصانها في أنحاء النّار. أمّا ما يَطْلُع من ثمرها القبيح الشّكل الكئيب المنظر فكأنّه رءوس الشّياطين الّتى استقرّ في النفوس أنّها الأقبح منظراً من كلّ قبيح. وهكذا تَخْبُت شجرة الزّقّوم مَخْبراً ومنظراً.

---

(١) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٤٢.

(٢) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٤٢.

(٣) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٤٢.

(٤) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «هرع» ٢/ ٥٠٧.

(٥) انظر تفصيل ذلك في لسان العرب : «هرع».

(٦) سورة الحشر ٢٠.

وهؤلاء المشركون الخالدون في نار جهنّم يأكلون من شجرة الزّقّوم هذه، لأنّهم ليس لهم طعامٌ سواها، فمالئون منها البطون والعياذ بالله. وحينما يريدون أن يخفّفوا من وطأة حرارتها الشّديدة في أمعائهم يشربون من الحميم، وهو الماء الغاية في شدّة الغليان، ويكون هذا النّوع من الشّراب هو الّذى يمتزج بذلك النّوع من الطّعام. وهكذا يسوء طعام أهل النّار وشرابهم. وبعد أن يشرب المشركون من الحميم يعودون إلى أعماق الجحيم. وهكذا يتقلّب المشركون بين نار الجحيم والشّرب من الحميم.

وينصّ السّياق على السّبب وراء كلّ هذا العذاب الأليم.

إنّ المشركين وجدوا آباءهم ضالّين عن سواء السّبيل، مدبرين عن التّوحيد، مقبلين على الشّرك، فحذَوْا حذوهم، واقتفوا آثارهم، وعطّلوا عقولهم، وأعرضوا مثل آبائهم عن دعوة المصطفى ﷺ، وصدّوا عن سبيل الله تعالى. والعجيب في هؤلاء الأبناء الّذين اقتفوا آثار آبائهم الضّالّين، أنّهم كانوا يتسابقون نحو الضّلالة، ويتنافسون في الحصول على قصب سبق الانحراف عن سواء السّبيل، سعداء بإعراضهم عن دعوة الحقّ والصّدّ عن سبيل الله تعالى، فرحين بشركهم وبعمى بصائرهم.

إنّ حال كفّار مكّة ومن شاكلهم من المشركين، شبيهٌ بحال المشركين السّابقين، الّذين ضلّوا عن سواء السّبيل، والّذين كذّبوا رسل الله تعالى الّذين أنذروهم بنار جهنّم إنْ هم أصرّوا على شركهم. وكما اشترك السّابقون واللاحقون في الشّرك والصّدّ عن سبيل الله تعالى، اشتركوا في دخول نار جهنّم، والأكل من شجرة الزّقّوم، والشّرب من الحميم.

فانظر يا محمّد بعقلك وقلبك ونور بصيرتك ويا أيّها المؤمن، كيف كان عاقبة المنذرين الّذين أصرّوا على كفرهم وعنادهم حتّى توفّتهم ملائكة العذاب، ووجدوا أنفسهم يوم القيامة قد بُعثوا ونُشروا وعوقبوا.

وإنّ الّذين نَجَوْا بفضل الله تعالى من العذاب ونالوا الثّواب هم عباد الله تعالى الّذين اجتباهم عزّ وجلّ يوم خلقهم لرحمته واصطفاهم، والّذين أخلصوا دينهم لله تعالى.

(٤)

« نَصَرَ الله تعالى نوحاً وإبراهيم وموسى وهارون وإلياس ولوطاً عليهم السّلام، ونجّى يونس عليه السّلام من الغمّ»

الآيات (٧٥ ـ ١٤٨)

وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ
ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾
وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ
عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ
عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٨٢﴾

فلنعم المجيبون : فلنعم المجيبون كنّا له إذ دعانا(١).

من الكرب العظيم : من الأذى والمكروه الّذى كان فيه من الكافرين، ومن كرب الطّوفان والغرق الّذى هلك به قوم نوح(٢).

وجعلنا ذرّيّته هم الباقين : النّاس كلّهم من بعد مهلك نوحٍ إلى اليوم إنّما هم ذرّيّة نوح(٣).

وتركنا عليه في الآخرين : وأبقينا على نوحٍ ذكراً جميلاً وثناءً حسناً في الآخرين، يعنى فيمن تأخّر بعده من النّاس يذكرونه به(٤) قال مجاهد : جَعَلْنا لسان صدقٍ للأنبياء كلّهم(٥) وقال قتادة : أبقى الله عليه الثّناء الحسن في الآخرين(٦).

---

(١) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٤٣.

(٢) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٤٣.

(٣) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٤٣.

(٤) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٤٣.

(٥) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٤٣.

(٦) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٤٣.

سلامٌ على نوحٍ في العالمين : أَمَنَةٌ من الله لنوحٍ في العالمين أن يذكره أحدٌ بسوء(١) وهو يسلّم عليه في جميع الطّوائف والأمم(٢).

ولقد نادانا نوحٌ عليه السّلام أوّل رسلنا في مثل قوله تعالى (٣): ﴿فدعا ربّه أنّي مغلوبٌ فانتصر﴾ وفي مثل قوله تعالى(٤) : ﴿وقال نوحٌ ربّ لا تذر على الأرض من الكافرين ديّارا. إنّك إن تذرهم يضلّوا عبادك ولا يلدوا إلاّ فاجراً كفّارا﴾. فلنعم المجيبون كنّا له إذ دعانا: ﴿ففتحنا أبواب السّماء بماء منهمر. وفجّرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قُدِر. وحملناه على ذات ألواحٍ ودُسُر. تجرى بأعيننا جزاءً لمن كان كُفِر﴾(٥). ونجّى الله تعالى نوحاً عليه السّلام وأهله المؤمنين في السّفينة من الكرب العظيم، والأذى البعيد من قومه الكافرين. وجعل عزّ وجلّ ذريّة نوحٍ عليه السّلام والّذين كانوا معه عليه السّلام في السّفينة، هم الباقين على قيد الحياة وإلى يوم النّاس هذا، لأنّ الّذين كانوا خارج السّفينة قد أغرقهم الله تعالى.

وترك عزّ وجلّ لنوحٍ عليه السّلام وأبقى عليه الذّكر الحسن والثّناء العاطر في الآخرين من أتباع كلّ الدّيانات السّماوية. سلامٌ على نوحٍ عليه السّلام في العالمين أن يذكره أحدٌ بسوء.

إنّ الله تعالى كما أثاب نوحاً عليه السّلام والمؤمنين معه يثيب المحسنين في كلّ زمانٍ ومكان. إنّ نوحاً عليه السّلام من عباد الله تعالى المؤمنين الطّيّبين الأخيار.

وكما أنجى الله تعالى نوحاً عليه السّلام والمؤمنين معه من الغرق بركوب السّفينة أغرق عزّ وجلّ الآخرين الكافرين خارجها.

(١) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٤٣.

(٢) تفسير ابن كثير ٧/ ٢٠.

(٣) سورة القمر ١٠.

(٤) سورة نوح ٢٦ و ٢٧.

(٥) سورة القمر ١١-١٤.

﴿ وَإِنَّ مِن
شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ
لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ
﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾
فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ
فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا
بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ
﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ
فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾
وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ
﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ
يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ
يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾
فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ
صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ
ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى
ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ
﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ
ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا
مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾

وإنّ من شيعته : على دينه وملّته(١) ومنهاجه وسنّته(٢)

(١) تفسير الطبرى ٢٣/ ٤٤ .
(٢) تفسير الطبرى ٢٣/ ٤٤ .

بقلبٍ سليم : من الشّرك مخلصٍ له التّوحيد(١).

إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون : حين قال إبراهيم لأبيه وقومه أيّ شيءٍ تعبدون(٢).

أإفكاً آلهة دون الله تريدون : أكذباً معبوداً غير الله تريدون(٣) والإفك كلّ مصروفٍ عن وجهه الّذى يحقّ أن يكون عليه(٤).

فما ظنّكم بربّ العالمين : فأيّ شيءٍ تظنّون أيّها القوم أنّ يصنع بكم إن لقيتموه وقد عبدتم غيره(٥).

فنظر نظرةً في النّجوم. فقال إنّى سقيم: إنّما قال إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام لقومه ذلك، ليقيم في البلد إذا ذهبوا إلى عيدهم، فإنّه كان قد أزف خروجهم إلى عيدٍ لهم، فأحبّ أن يختلي بآلهتهم فيكسرها، فقال لهم كلاماً هو حقٌ في نفس الأمر. ففهموا منه أنّه سقيمٌ على مقتضى ما يعتقدونه: ﴿فتولّوا عنه مدبرين﴾ قال قتادة: والعرب تقول لمن تفكّر: نظر في النّجوم، يعنى قتادة أنّه نظر في السّماء متفكراً فيما يلهيهم به فقال: ﴿إنّي سقيم﴾ أي ضعيف (٦)يقول الطّبرى(٧) :«ذكر أنّ قومه كانوا أهل تنجيم، فرأى نجماً قد طلع فغضب رأسه

---

(١) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٤٤.

(٢) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٤٤.

(٣) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٤٥.

(٤) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «أفك» ١/ ٢٣.

(٥) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٤٥.

(٦) تفسير ابن كثير ٧/ ٢١.

(٧) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٤٥.

وقال: إنّى مطعـون. وكان قـومه يهربون من الطّاعـون. فأراد أن يتـركوه في بيت آلهتهم ويخرجوا عنه ليخالفهم إليها فيكسرها» ويقول ابن كثير(١) : «فأمّا الحديث الّذى رواه ابن جـرير ههنا(٢)عـن أبى هريرة أنّ رسـول الله ﷺ قـال: لم يكذب إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام غـير ثلاث كذبات: ثنتين في ذات الله، قوله: ﴿إنّى سقـيم﴾ وقوله(٣): ﴿بل فعله كـبيرهم هذا﴾ وقـوله في سارّة: هي أختى، فـهو حديثٌ مـخرّجٌ في الصّـحاح والسّنن مـن طرق. ولكن ليس هذا من باب الكذب الحقيقيّ الّذى يذمّ فاعله. حاشـا وكلاّ. وإنّما أطلق الكذب على هذا تجوّزا. وإنّما هو من المعـاريض في الكلام لمقـصد شـرعيّ دينيّ، كـمـا جاء في الحـديث : إنّ المعاريض لمندوحةٌ عن الكذب».

فتولّوا عنه مدبرين : فنكصوا عنه مدبرين منطلقين(٤).

فراغ إلى آلهـتهم: فمـال إلى آلهتهـم بعدما خـرجوا عنه وأدبروا. وأرى أنّ أصل ذلك من قـولهم: راغ فـلانٌ عن فلان إذا حـاد عنه، فكون مـعناه إذا كـان كذلك: فراغ عن قومه والخروج معهم إلى آلهتهم(٦).

فراغ عليهم ضرباً باليمين : فمال على آلهة قومه ضرباً لها باليمين بفأسٍ في يده يكسرهن(٧) وكان بعض أهل العربيّة يتأوّل ذلك بمعنى فراغ عليهم ضرباً بالقوّة والقدرة ويقول: اليمين في هذا الموضع القوّة(٨).

---

(١) تفسيـر ابن كثير ٧/ ٢١ والمعاريض والمعارض جـمع معراض من التّعريض بالقول وهو خـلاف التّصريح. ومندوحة فسحة ومتّسع. فتح البارى ١٠/ ٥٩٤.

(٢) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٤٥ وانظر فتح الباري ٦/ ٣٨٨ حديث رقم ٣٣٥٨.

(٣) سورة الأنبياء ٦٣.

(٤) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٤٦.

(٥) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٤٦.

(٦) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٤٦.

(٧) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٤٦.

(٨) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٤٦.

بزفّون : يسرعون. وأصل الزّفيف في هُبوب الرّيح وسرعة النّعام الّتى تخلط الطيران بالمشى(١) يقال : زفّت النّعامة وذلك أوّل عدوها وآخر مشيها(٢).

والله خلقكم وما تعملون : يحتمل أن تكون «ما» مصدريّة فيكون تقدير الكلام: والله خلقكم وعملكم. ويحتمل أن تكون بمعنى الّذى، تقديره: والله خلقكم والّذي تعملونه. وكلا القولين متلازم. والأوّل أظهر، لما رواه البخاريّ في كتاب : أفعال العباد، عن حذيفة مرفوعاً قال: إن الله يصنع كلّ صانع وصنعته(٣).

قالوا ابنوا له بنياناً : ذكر أنّهم بنوا له بنياناً يشبه التّنّور ثمّ نقلوا إليه الحطب وأوقدوا عليه(٤).

فألقوه في الجحيم : الجحيم عند العرب جمر النّار بعضه على بعض، والنّار على النّار(٥).

فأرادوا به كيدا : فأراد قوم إبراهيم بإبراهيم كيدا، وذلك ما كانوا أرادوا من إحراقه بالنّار(٦).

فجعلناهم الأسفلين: فجعلنا قوم إبراهيم الأذلّين حجّة، وغلّبنا إبراهيم عليهم بالحجّة، وأنقذناه ممّا أرادوا به من الكيد(٧).

وقال إنّي ذاهبٌ إلى ربّى : وقال إنّى مهاجرٌ من بلدة قومي إلى الله، أي إلى الأرض المقدّسة ومفارقهم فمعتزلهم لعبادة الله(٨).

---

(١) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «زفّ» ١/ ٢٨١ وتفسير ابن كثير ٧/ ٢٢.

(٢) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٤٧.

(٣) تفسير ابن كثير ٧/ ٢٢ وانظر تفسير الطّبرى ٢٣/ ٤٧.

(٤) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٤٨.

(٥) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٤٨.

(٦) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٤٨.

(٧) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٤٨.

(٨) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٤٨.

سيهدين : سيثبّتني على الهدى الّذى أبصرته ويعينني عليه[١].

ربّ هب لي من الصّالحين : ياربّ هب لي منك ولداً يكون من الصّالحين الّذين يطيعونك ولا يعصونك ويصلحون في الأرض ولا يفسدون[٢] ويقول ابن كثير[٣] : «يعنى أولاداً مطيعين عوضاً من قومه وعشيرته الّذين فارقهم».

فبشّرناه بغلامٍ حليم: هذا الغلام هو إسماعيل عليه السّلام، فإنّه أوّل ولدٍ بشّر به إبراهيم عليه السّلام، وهو أكبر من إسحاق باتّفاق المسلمين وأهل الكتاب[٤] وعندهم أنّ الله تعالى أمر إبراهيم أن يذبح وحيده، وفي نسخة: بِكْره. فأقحموا ههنا كذباً وبهتاناً: «إسحاق» ولا يجوز هذا لأنّه مخالفٌ لنصّ كتابهم. وإنّما أقحموا: «إسحاق» لأنّه أبوهم، وإسماعيل أبو العرب، فحسدوهم، فزادوا ذلك وحرّفوا وحيدك، بمعنى الّذي ليس عندك غيره. فإنّ إسماعيل كان ذهب به وبأمّه إلى جنب مكّة. وهذا تأويلٌ وتحريفٌ باطل، فإنّه لا يقال «وحيد» إلاّ لمن ليس له غيره. وأيضاً فإنّ أوّل ولد، له مَعَزّةٌ ما ليس لمن بعده من الأولاد، فالأمر بذبحه أبلغ في الابتلاء والاختبار[٥]. والمناسك والذّبائح إنّما محلّها بمنىً من أرض مكّة، حيث كان إسماعيل لا إسحاق، فإنّه إنّماكان ببلاد كنعان من أرض الشّام[٦].

فلمّا بلغ معه السّعى : أي أن يسعى معه ويعينه. قيل بلغ سبع سنين. وقيل ثلاث عشرة سنة[٧].

---

(١) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٤٨.

(٢) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٤٨.

(٣) تفسير ابن كثير ٧/ ٢٢.

(٤) تفسير ابن كثير ٧/ ٢٣.

(٥) تفسير ابن كثير ٧/ ٢٣ وانظر ص ٢٩ في حسد القوم للعرب.

(٦) تفسير ابن كثير ٧/ ٢٥.

(٧) الجلالين.

قال يا بنيّ إنّى أري: أي رأيت(١).

في المنام أنّى أذبحك : رؤيا الأنبياء في المنام وحي(٢) وحقّ. وأفعالهم بأمر الله تعالى(٣).

فانظر ماذا ترى : إنّما أعلم ابنه بذلك ليكون أهون عليه، وليختبر صَبْره وجَلَده وعَزْمه من صغره على طاعة الله وطاعة أبيه(٤).

قال يا أبت : التّاء عوض عن ياء الإضافة(٥).

فلمّا أسلما : فلمّا استسلما وانقادا. إبراهيم امتثل أمر الله وإسماعيل طاعة الله وأبيه(٦).

وتلّه للجبين : أكبّه على وجهه(٧) أي صرعه على وجهه ليذبحه من قفاه ولا يشاهد وجهه عند ذبحه ليكون أهون عليه(٨) وأكبّه على جبهته(٩).

وناديناه أن يا إبراهيم قد صدّقت الرّؤيا : أي قد حصل المقصود من رؤياك بإضجاعك ولدك للذّبح(١٠).

إنّا كذلك نجزى المحسنين: إنّا كما جزيناك بطاعتنا يا إبراهيم كذلك نجزى الّذين أحسنوا وأطاعوا أمرنا وعملوا في رضانا(١١).

(١) الجلالين.

(٢) تفسير ابن كثير ٧/ ٢٣.

(٣) الجلالين.

(٤) تفسير ابن كثير ٧/ ٢٤.

(٥) الجلالين.

(٦) تفسير ابن كثير ٧/ ٢٤.

(٧) تفسير ابن كثير ٧/ ٢٤.

(٨) تفسير ابن كثير ٧/ ٢٤.

(٩) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٥١.

(١٠) تفسير ابن كثير ٧/ ٢٥.

(١١) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٥١.

إنّ هذا لهو البلاء المبين: إنّ هذا لهو الاختبار الّذى يبين لمن فكّر فيه أنّه بلاءٌ شديدٌ ومحنةٌ عظيمة(١).

وفديناه بذبحٍ عظيم: الفِدى والفِداء حفظ الإنسان عن النّائبة بما يبذله عنه(٢) والفدية الجزاء. يقول جزيناه بأن جعلنا مكان ذبحه ذبح كبشٍ عظيم، وأنقذناه من الذّبح(٣) والعرب تقول لكلّ ما أعدّ للذّبح ذِبْح(٤) والذِّبح المذبوح(٥) وهذا الكبش من الجنّة. وهو الّذى قرّبه هابيل جاء به جبريل عليه السّلام فذبحه السّيّد إبراهيم مكبّرا(٦) ومِنَ الّذين قالوا إنّ الذّبيح إسماعيل عليّ، وابن عمر، وأبو هريرة، وأبو الطفيل، وسعيد بن المسيّب، وسعيد بن جبير، والحسن، ومجاهد، والشّعبي، ومحمّد بن كعب القرظيّ، وأبو جعفر محمّد بن علي، وأبو صالح، والإمام أحمد بن حنبل وآخرون(٧) والرّواية الأخرى عن ابن عبّاس رضي الله تعالى عنهما(٨) عن ابن إسحاق قال: سمعت محمّد بن كعب القرظيّ وهو يقول: إنّ الّذى أمر الله إبراهيم بذبحه من ابنيه إسماعيل. وإنّا لنجد ذلك في كتاب الله. وذلك أنّ الله (٩)حين فرغ من قصّة المذبوح من ابني إبراهيم قال: ﴿وبشّرناه بإسحاق نبيّاً من الصّالحين﴾ ويقول: ﴿فبشّرناه بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب﴾ يقول بابنٍ وابن ابن. فلم يكن ليأمره بذبح إسحاق وله فيه من الموعود بما وعده، وما الّذى أمر بذبحه إلاّ إسماعيل(١٠).

---

(١) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٥١.

(٢) مفردات الرّاغب الأصفهاني: «فدى» ٢/ ٤٨٤..

(٣) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٥١.

(٤) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٥٤.

(٥) مفردات الرّاغب الأصفهاني: «ذبح» ١/ ٢٣٥.

(٦) الجلالين.

(٧) انظر تفسير ابن كثير ٧/ ٢٩و٢٨.

(٨) انظر تفسير ابن كثير ٧/ ٢٨ و ٢٩ و ٢٤.

(٩) رواية الطّبرى: وذلك أنّ الله يقول حين.....

(١٠) انظر تفسير الطّبرى ٢٣/ ٥٤ وتفسير ابن كثير ٧/ ٢٩.

وجاء في مسند الإمام أحمد[1] مـايفيد أنّ قرني الكبش لم يزالا معلّقين في البيت حتّى احترق البيت فاحترقا. وعلّق ابن كثير[2] قـائلاً: «وهذا دليلٌ مستقلٌ على أنّه إسـماعيل عـليّه السّلام، فـإنّ قريشـاً توارثوا قرني الكبش الّـذى فَدَى به إبراهيم خلفاً عن سلف، وجيلاً بعد جيل، إلى أن بعث الله رسوله ﷺ».

عن السّـدّيّ قال : الـتفت، يعنى إبراهـيم، فإذا بكبشٍ فـأخـذه وخلّى عن ابنه[3].

وتركنا عليـه في الآخرين: وأبقـينا عليـه فيـمن بعده إلى يوم القـيامـة ثناءً حسنـا[4] قال ابن زيد: سأل إبـراهيم فقـال[5] : ﴿واجعل لى لسـان صدقٍ في الآخِرين﴾ فترك الله عليه الثناء الحسن في الآخرين[6].

سلامٌ على إبراهيم: أَمَنَةٌ من الله في الأرض لإبراهيم ألاّ يـذكر من بعده إلاّ بالجميل من الذّكر[7].

وبشّرناه بإسـحاق نبيّا : وبشّرنا إبراهيـم بإسحاق نبيّاً شكراً له عـلى إحسانه وطاعته[8].

مبين : قد أبان ظلمه نفسه بكفره بالله[9].

وإنّ من شيعة نوح عليه السّلام، أوّل رسل الله تعالى للنّاس، ومن هو على سنّته ومنهاجـه ودينه، دين الإسلام لله تعالى ربّ العالمين، المبـعوث به كلّ النّبيّين

(١) انظر تفسير ابن كثير ٧/ ٢٧ وتخريج الحديث هنالك.

(٢) تفسير ابن كثير ٧/ ٢٧ وانظر ص ٢٤ بشأن رأس الكبش وقرنيه.

(٣) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٥٦.

(٤) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٥٦.

(٥) سورة الشّعراء ٨٤.

(٦) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٥٦.

(٧) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٥٧.

(٨) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٥٧.

(٩) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٥٧.

والمرسلين، عليهم جميعاً صلوات ربّ العالمين وسلامه، لإبراهيم عليه السّلام، أبا الأنبياء. إنّ كلّ النّبيّين والمرسلين بعد إبراهيم عليه السّلام من ذرّيّته، عن طريق ابنِهِ إسحاق، وكلّ أنبياء بنى إسرائيل مِنْ ذرّيّته عليه السّلام، وابْنِهِ إسماعيل، ومن ذرّيّته عليه السّلام نبيٌّ واحد، هو محمّد بن عبدالله ﷺ، خاتم النبيين وأشرف المرسلين، عليهم جميعاً صلوات ربّ العالمين وسلامه.

إنّ إبراهيم عليه السّلام من شيعة نوح عليه السّلام وعلى منهاجه، حين جاء ربّه عزّ وجلّ بقلبٍ سليمٍ من الشّرك، موحّدٍ لله تعالى، مخلصٍ العبادة لله تعالى وحده دون سواه. وقد تجلّى القلب السّليم من الشّرك في أروع المواقف حين قال إبراهيم عليه السّلام لأبيه المشرك آزر، ولقومه عبدة الأصنام والأوثان، والّذين يقدّسون الكواكب، وحين سألهم عليه الصّلاة والسلام في إنكار: ما هذه الأصنام والأوثان الّتي تعبدونها من دون الله تعالى! أكذباً صريحاً وافتراءً على الله تعالى قبيحاً، آلهةً مزعومةً زائفةً غَيْرَ الله تعالى تريدون، ولها تقصدون، ومنها ترجون! فما ظنّكم بربّ العالمين أن يفعل بكم يوم القيامة، حينما تموتون مشركين مع الله تعالى في العبادة تلك الأصنام والأوثان!.

ومعروفٌ أنّ الشّرك هو الذّنب الوحيد الّذى لا يغفره الله تعالى.

ولمّا كان إبراهيم عليه السّلام قد صمّم على أن يفعل بالأصنام والأوثان الأفاعيل، وكان على علمٍ بأنّ قومه يقدّسون الكواكب ويعتقدون أنّ لها شيئاً من قدرةٍ على التّأثير والفعل، فقد قام عليه الصّلاة بفعلٍ له معنيان، يريد عليه السّلام أحدهما، ويفهم القوم آخرهما، وقال قولاً، هو الآخر له معنيان، يريد عليه السّلام أحدهما، ويفهم القوم آخرهما.

وإلى الفعل أشار الحقّ جلّ وعلا: ﴿فنظر نظرةً في النّجوم﴾ إنّ العرب الّذين نزل القرآن الكريم بلسانهم يقولون لمن تفكّر وتأمّل وتدبّر: نظر في النّجوم. وتلك حركةٌ آليةٌ يقوم بها من تفكّر وتدبّر وتأمّل. إنّ هذا المعنى هو الّذى أراده إبراهيم عليه السّلام فيما يبدو، والله أعلم. وإنّ قوم إبراهيم عليه السّلام فهموا أنّ إبراهيم عليه السّلام، وهو واحدٌ منهم، يقدّس الكواكب كما يقدّسون، ويعتقد أنّ لها شيئاً

من القدرة على التّأثير والأفعال، بدليل أنّ إبراهيم قد نظر إليها، وكأنّه يأتمر بأمرها.

وإلى القول أشار الحقّ جلّ وعلا: ﴿فقال إنّي سقيم﴾ إنّ إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام كأنّه في أعماقه يريد أن يقول لقومه المشركين، والله تعالى أعلم: إنّي بسبب شرككم بالله تعالى ما لم ينزّل به عليكم سلطاناً سقيم، أي مريض القلب من عبادتكم الأوثان من دون الله عزّ وجل[1] وإنّ قوم إبراهيم عليه السّلام فهموا أنّه عليه الصّلاة والسّلام مريضٌ فعلاً بسبب طلوع النّجم، الّذي أخذ إبراهيم عليه السّلام ينظر إليه، إيهاماً لهم بأنّه على شاكلتهم في الاعتقاد بتأثير النّجوم[2].

وبما أنّ إبراهيم عليه السّلام قد أرضى غرور القوم بظاهر فعله وقوله، وكسب ثقتهم، فقد تركوه وشأنه، فرجعوا عنه مدبرين إلى مكان عيدهم، وخلا الجوّ لإبراهيم عليه السّلام في المدينة الّتي خلت من أهلها، فمال إلى الآلهة المزعومة في سرعة، فقال لها مستهزئاً: ألا تأكلون الطّعام الّذي قدّمه لكم المشركون، ألا تباركونه بالأكل منه! ولمّا كانت الأصنام جماداً لا تأكل ولا تنطق فقد استمرّ إبراهيم عليه السّلام في قوله لها على سبيل السّخرية: ما الّذي حال بينكم وبين أن تجيبوا، وما الّذي منعكم من النّطق!.

ولمّا كانت الأصنام عاجزةً عن الأكل والكلام والدّفاع عن نفسها فقد مال إليها إبراهيم عليه السّلام يضربها الواحد تلو الآخر بالفأس في يمناه، ويكسرها، ويجعلها جذاذاً بالقوّة الّتي منحها الله تعالى إيّاه. علّق إبراهيم عليه السّلام الفأس في عنق كبير الأصنام وكأنّه هو الّذي كسرها الواحد تلو الآخر حمايةً لذاته من انصراف النّاس عن عبادته إلى إشراك الآلهة الصّغيرة معه في العبادة!.

علم القوم بنبأ الاعتداء على آلهتهم، واتّجهت أصابع الاتّهام إلى إبراهيم عليه السّلام، فأقبلوا إليه يسرعون، وعلموا أخيراً أنّ إبراهيم عليه السّلام هو الّذي فعل ذلك بآلهتهم، وأنكر عليهم صراحةً عبادة الأصنام الّتي ينحتونها بأيديهم؛

(١) تفسير ابن كثير ٧/ ٢١.

(٢) انظر تفسير الطّبري ٢٣/ ٤٥.

وعدم إفراد الله تعالى بالعبادة، وهو الّذى خلقهم وخلق ما يعملون من نحتهم ومنحوتهم. قرّر القوم إحراق إبراهيم عليه السّلام بالنّار، وبَنَوْا من أجل هذه الغاية الخسيسة بنياناً على هيئة التّنّور أو الفرن، وملأوه بالحطب الجزل، وأشعلوا فيه النّار، حتّى أصبحت جحيما يركب بعض جمرها بعضا، ويعلو بعض لهيبها بعضاً، فألقوه فيها بوسيلةٍ شيطانيّة لهم، مكّنتهم من رميه عليه الصّلاة والسّلام في قلب النّار من بعيد.

لقد أراد القوم الكيد لإبراهيم عليه السّلام وهلاكه بالنّار، فنجّاه الله تعالى منها، وجعلها برداً وسلاماً، فلا يؤذيه عليه السّلام البرد، كما لم تؤذه النّار بإذن الله تعالى. وهكذا جعل الله تعالى قوم إبراهيم عليه السّلام هم الأسفلين، فقد ذهب كيدهم أدراج الرّياح، ونصر الله تعالى خليله إبراهيم عليه السّلام، وجعل حجّته عليه الصّلاة والسّلام هي العالية والدّامغة.

وإذا كانت سورة الصّافّات قد ذكرت هذا الجانب من القصّة على الإجمال فإنّ سورة الأنبياء قد ذكرت هذا الجانب على التّفصيل. قال عزّ من قائل[1]: ﴿وتالله لأكيدنّ أصنامكم بعد أن تولّوا مدبرين. فجعلهم جذاذاً إلاّ كبيراً لهم لعلّهم إليه يرجعون. قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنّه لمن الظّالمين. قالوا سمعنا فتىً يذكرهم يقال له إبراهيم. قالوا فأتوا به على أعين النّاس لعلّهم يشهدون. قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم. قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون. فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنّكم أنتم الظّالمون. ثمّ نكسوا على رءوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون. قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضرّكم. أفٍّ لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون. قالوا حرّقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين. قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم. وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين﴾.

حينما بلغ الطّغيان بقوم إبراهيم عليه السّلام الحدّ الّذى ألقوه معه في أعماق النّار المتأجّجة كان عليه أن يهاجر. قال إبراهيم عليه السّلام إنّى مهاجرٌ إلى عبادة

---

(١) سورة الأنبياء ٥٧ - ٧٠.

ربّي عزّ وجلّ، وذاهب إلى الأرض المباركة في الشام. وإنّ ربّي عزّ وجلّ الّذي امتنّ عليّ فهداني سواء السّبيل، وامتنّ علي بهداية التّوفيق لدين الإسلام لله تعالى ربّ العالمين، سوف يمتّن عليّ بتثبيتي على الصّراط المستقيم.

وبما أنّ قومه عليه الصّلاة والسّلام قد أعرضوا عنه، وانصرفوا عن دعوته لهم إلى التّوحيد وأقبلوا على الشّرك، فقد اتّجه عليه الصّلاة والسّلام إلى بارئه عزّ وجلّ، وسأل ربّ جلّ وعلا أن يهب له ولداً من الصّالحين.

استجاب تعالى دعوة أبي الأنبياء إبراهيم عليه السّلام فبشّره عزّ وجلّ بولد ذكرٍ من صُلْبه يتّسم بالحلم منذ أن يبلغ حدّ الغُلومة ويكاد يناهز الحُلُم ويَطُرُّ شاربه(١) وهذا الغلام هو في أرجح الآراء إسماعيل عليه السّلام، أبو العرب، والجدّ الأكبر لمحمّد بن عبدالله ﷺ، خاتم النّبيّين، وأشرف المرسلين، والنّبيّ الوحيد من ذرّيّة إسماعيل بن إبراهيم عليهما الصّلاة والسّلام.

فلمّا بلغ الغلام إسماعيل مع أبيه إبراهيم عليه السّلام السّعي والعمل ومعاونة أبيه، وامتلأت عين والده به سروراً، ونفسه بين جنبيه بهجةً وحبورا، أرى جلّ وعلا إبراهيم عليه السّلام في المنام رؤيا، ورؤيا الأنبياء وحيٌ وحقّ، فقصّها الوالد الرّحيم على ولده الحليم. نادى إبراهيم عليه السّلام ابنه إسماعيل عليه السّلام في صيغة تصغير التّمليح: ﴿يا بنيّ﴾ ومثل هذه الصّيغة تدلّ على مدى الاطمئنان الّذي تمكّن من قلب إبراهيم عليه السّلام استسلاماً لأمر الله تعالى، واليقين الّذي ملك عليه جوانب نفسه رضاً بقضاء الله تعالى. ودليلاً على سيطرة الرّؤى على كلّ مشاعر إبراهيم عليه السّلام تجيء صيغة الزّمن المضارع في القول: ﴿إنّي أري في المنام أنّي أذبحك﴾ مع أنّ زمن الرّؤيا قد مضى، ولكنّ تمثّل إبراهيم عليه السّلام لها، وتجدّدها في ذاكرته، وسيطرتها عليه، جعلت صيغة الفعل المضارع الّتي تدلّ على التّجدّد والاستمرار هي الّتي تأتي.

ويستشير الأب الرّحيم الابن الحليم في الرّؤيا الّتي رأى، ويريد أن يعرف رأيه فيها، وردّ الفعل عنده تجاهها. بادر الابن الحليم، الّذي أكرم عزّ وجل به

---

(١) انظر مفردات الرّاغب الأصفهاني: «غلم» ٢/ ٤٧٢.

إبراهيم عليه السّلام وقد دعاه أن يهبه ابناً من الصّالحين، إلى تلبية النّداء والقيام بالواجب: ﴿قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصّابرين﴾ وكان اطمئنان الابن الحليم من جنس اطمئنان الأب الرّحيم، ويتجلّى ذلك من نداء الابن في طريقة من جنس نداء الأب ابنه: ﴿قال يا أبت﴾ ومعروفٌ أنّ التّاء عوضٌ عن ياء الإضافة. ويُنْزِل الابن الحليم رؤيا أبيه المناميّة منزلة الأمر، فعلى الأب الرّحيم أن يبادر إلى فعل ما أمره الحقّ جلّ وعلا به. وتأكيداً لطمأنينة الابن وتوكّله على الحقّ جلّ وعلا تجيء السّين الدّالّة على المستقبل القريب في القول: ﴿ستجدني﴾ ولا تجيء سوف الدّالّة على المستقبل البعيد. ولا ينسى الابن الحليم العازم على الصّبر أن يعلّقه بمشيئة الله تعالى، الّذى ما شاء كان، والّذى لم يشأ لم يكن، والّذى إذا أراد شيئاً فإنّما يقول له كن فيكون.

أذعن لأمر الله تعالى وقضائه إبراهيم عليه السّلام الأب الرّحيم فتهيّأ لذبح ولده البكر إسماعيل عليه السّلام وفلذة كبده. كما أذعن إسماعيل عليه السّلام الابن الحليم، الّذى هيّأ نفسه للذّبح، وخفّف شيئاً من معاناة والده، فارتأى أن يكبّه على وجهه كيلا يراه متألّماً، حينما يُجرى السّكين على رقبته، كما ارتأى - فيما يقال - أن تكون السّكين حادّةً تسهيلاً للمهمّة. وهكذا تتضمّن الآية الكريمة: ﴿فلمّا أسلما وتلّه للجبين﴾ حقّ الله تعالى أوّلا، حينما أذعن الأب والابن وانقاد لمشيئة الله تعالى، وحقّهما آخراً، بأن يتمّ الذّبح سريعاً ووجه إسماعيل عليه السّلام متّجهٌ إلى الأرض تخفيفاً عن كلٍّ من الأب الرّحيم والابن الحليم شيئاً من المعاناة.

لقد كان فعل إبراهيم وإسماعيل عليهما الصّلاة والسّلام ما أمرهما الله تعالى بفعله في رؤيا إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام المناميّة قد وقع موقع الرّضا من الحقّ جلّ وعلا البرّ الرّءوف الرّحيم. وها هو ذا السّياق يومىء إلى ذلك. وكأنّ تقدير الكلام بشأن الآية الكريمة: ﴿وناديناه أن يا إبراهيم﴾ لقد رضي الحقّ جلّ وعلا عن امتثال إبراهيم عليه السّلام لأمره عزّ وجلّ وناداه أن يا إبراهيم قد صدّقت الرّؤيا بإضجاعك ابنك الحليم للذّبح، وها نحن أولاء نعطّل عمل السّكين فلا تذبح بأمرنا، تماماً كما عطّلنا عمل النّار الّتى قُذِفْتَ فيها فلا تحرق بأمرنا، بل تتحوّل برداً

وسلاماً عليك يا إبراهيم. إنّا كما جزيناك وجزينا ابنك الحليم إسماعيل بإنقاذه عليه السّلام من الذّبح، نجزى المحسنين من المسلمين لله تعالى ربّ العالمين. في كلّ زمان ومكان.

إنّ هذا الّذى أَمَرْنا به إبراهيم الخليل عليه السّلام من ذبح ابنه البكر وفلذة كبده الوحيد آنذاك، إسماعيل عليه السّلام، لهو البلاء المبين، والاختبار الواضح، لكلّ ذي بصيرة نيّرة. وفدينا إسماعيل من الذّبح بذبحٍ عظيم، وأنقذناه من الموت بكبشٍ معدٍّ للذّبح جاء به جبريل عليه السّلام من الجنّة، وجده إبراهيم عليه السّلام بجواره، وذبحه بإيحاءٍ من الله تعالى في المنحر بمنى(١) وقد أثنى الحقّ جلّ وعلا على إسماعيل الصّادق الوعد في الآية الكريمة الرّابعة والخمسين من سورة مريم. قال تعالى: ﴿واذكر في الكتاب إسماعيل إنّه كان صادق الوعد وكان رسولاً نبيّا﴾.

لقد ترك الحقّ جلّ وعلا على إبراهيم الخليل الأوّاه الحليم ثناءً حسناً في الآخرين من أتباع كلّ النّبيّين اللّاحقين والمرسلين. سلامٌ من الله تعالى وطمأنينةٌ وأَمَنةٌ على إبراهيم عليه السّلام. وكما جزى الله تعالى إبراهيم عليه السّلام الجزاء الحسن بسبب اجتهاده عليه السّلام في طاعة الله تعالى يجزى عزّ وجلّ المحسنين من المسلمين لله تعالى ربّ العالمين في كلّ زمانٍ ومكان. إنّ إبراهيم عليه السّلام من عباد الله تعالى الّذين بلغوا القمّة في الإيمان والغاية في الإحسان.

وبعد أن انتهى الحديث عن إسماعيل عليه السّلام يتحوّل السّياق إلى الحديث عن إسحاق عليه السّلام الأخ الأصغر لإسماعيل عليه السّلام. إنّ الحقّ عزّ وجلّ يبشّر إبراهيم عليه السّلام بولدٍ آخر هو إسحاق عليه السّلام من زوجه سارّة بعد أن أكرمه الله تعالى بولده البكر إسماعيل عليه السّلام من زوجه هاجَر الّتى كانت أصلاً جاريةً مملوكةً لسارّة، فوهبتها لإبراهيم عليه السّلام زوجها(٢).

بل إنّ البشّارة لا تقتصر على الابن الآخر الذّكر إنّما تتجاوز ذلك إلى أنّه سيكون نبيّاً من الصّالحين. والمعروف أنّ قمّة الصّلاح تتجلّى في كلٍّ من المرسلين

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ٧/ ٢٤.

(٢) انظر ـ مثلاً ـ تهذيب الأسماء واللّغات للإمام النّووى ١/ ١٠٢.

والنّبيّين، عليهم جميعاً صلوات ربّ العالمين.

وبارك الله تعالى على إبراهيم عليه السّلام، فهو أبو كلّ النّبيّين والمرسلين، وعلى إسحاق، فكلّ أنبياء بني إسرائيل ومرسليهم من ذريّته عليه الصّلاة والسّلام. ومن ذرّيّة كلٍّ من إبراهيم وإسحاق عليهما الصّلاة والسّلام محسنٌ مسلم لله تعالى ربّ العالمين. وظالمٌ مشركٌ يبين لكلّ ذي بصيرةٍ نيّرة أنّه ضالٌّ عن سواء السّبيل، ظالمٌ للعبادة بصرفها إلى من لا يَسْتحقُّها، عن الله تعالى الواحد الأحد، الفرد الصّمد، الّذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد. والّذي يستحقّ أن يُعْبَدَ وحده دون سواه.

ويلاحظ بشأن ترتيب الأقوام الّذين أهلكهم الله تعالى، كي يتّعظ كفّار مكّة ومن شاكلهم، أنّ السّياق بدأ بقوم نوحٍ عليه السّلام، لأنّه أوّل الرّسل والأب الثّاني للبشريّة، ثمّ تحوّل الحديث إلى إبراهيم عليه السّلام أبي الأنبياء. وإنّ النّصّ على إبراهيم وإسحاق عليهما السّلام في آخر الآيات الكريمات رشّح لتحوّل الحديث إلى موسى وهارون عليهما السّلام.

وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾

بعد الحديث عن إبراهيم وابنيه إسماعيل وإسحاق عليهم السّلام، يتحوّل السّياق إلى الحديث عن موسى وهارون عليهما السّلام. وكان النصّ في آخر آيات القسم السّابق على إبراهيم وإسحاق عليهما السّلام. وإنّ التّثنية في الآية الكريمة

رشّحت لتحوّل السّياق إلى الحديث عن نبيّين كريمين ورسولين عظيمين، هما موسى وهارون عليهما السّلام. والمعروف أنّ موسى عليه السّلام كبير أنبياء بنى إسرائيل. والمعروف كذلك أنّ كلّ أنبياء بنى إسرائيل من ذرّيّة إسحاق بن إبراهيم عليهما السّلام، عن طريق يعقوب بن إسحاق عليهما السّلام. وليعقوب عليه السّلام اسمٌ آخر هو إسرائيل(١).

يقرّر السّياق أنّ الحقّ جلّ وعلا منّ على موسى وهارون عليهما السّلام بالنّبوّة، وتفضّل عليهما بالرّسالة. والمعروف أنّ درجتي النّبوّة والرّسالة محض فضلٍ من الله تعالى وخالص نعمة. والمعروف كذلك أنّ النّبوّة هي الطّريق الوحيد المؤدي إلى الرّسالة. فكلّ رسولٍ نبيّ، وليس كلّ نبيّ رسولا.

ونجّى الله تعالى موسى وهارون وقومهما من بنى إسرائيل وأنقذهما من الكرب العظيم، والقهر الشّديد، والأذى الأكيد، الّذى كان يمارسه فرعون وقومه من القبط، ضدّ بنى إسرائيل. لقد كان فرعون الطّاغية يقتّل أطفال بنى إسرائيل الذّكور، ويستحيى الإناث ويستبقيهنّ كي يسخّرهنّ مستقبلاً للقيام بأحطّ الأعمال ويكرههنّ عليها.

وقد نصر الله تعالى موسى وهارون وبنى إسرائيل على فرعون الطّاغى ووزيره، هامان الباغى وجنودهما القساة القلوب الغلاظ الأكباد، بأن أغرق الحقّ جلّ وعلا فرعون وجنده في البحر الأحمر الّذى كان يسمىّ بحر القُلْزُم، ونجّى موسى وهارون وبنى إسرائيل إلى برّ الأمان سالمين موفوري العدد. ثمّ إنّ من بقى في مصر من بنى إسرائيل ورثوا فرعون وقومه القصور والدّور والأموال. وهكذا نصر الله تعالى موسى وهارون وبنى إسرائيل على فرعون وقومه فكانوا هم الغالبين.

وقد آتى الله تعالى موسي وهارون الكتاب الواضح المعانى البليغ البيان، وهو التّوراة الّتى أوحاها الله تعالى إلى موسى عليه السّلام. وهذا الكتاب العزيز هدىً وضياءٌ وذكرٌ لموسى وهارون عليهما السّلام ولبنى إسرائيل.

---

(١) انظر - مثلاً - تهذيب الأسماء واللّغات للإمام النّووى ٢/ ١٦٥.

وقد هدى الله تعالى موسى وهارون عليهما السّلام الصّراط المستقيم وهو دين الإسلام لله ربّ العالمين، الّذى بعث الله تعالى به كلّ النّبيّين والمرسلين عليهم صلوات ربّ العالمين وسلامه أجمعين.

وترك الله سبحانه وتعالى على موسى وهارون ذكراً حسناً وثناءً عاطراً لدى الأمم اللّاحقة من أتباع النّبيّين اللّاحقين أجمعين.

وتوّج الذّكر الحسن والثّناء العاطر من عباد الله تعالى الصّالحين، بالسّلام على موسى وهارون عليهما السّلام، من ربّ العالمين، وبالأمن والطّمأنينة.

إنّ الحقّ جلّ وعلا كما جزى موسى وهارون عليهما السّلام في الأولى والآخرة يجزى المحسنين من المؤمنين المتّقين الّذين بلغوا مرتبة الإحسان، كما بيّنها الحديث النّبويّ الشّريف، بأن تعبد الله كأنّك تراه فإن لم تكن تراه فإنّه يراك(١).

إنّ موسي وهارون عليهما الصّلاة والسّلام من عباد الله تعالى المؤمنين الّذين أخلصوا العبادة لله تعالى وحده دون سواه، وبلغوا في ذلك أرفع الدّرجات.

وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾
إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ
الْخَالِقِينَ ﴿١٢٥﴾ اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾
فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾
وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ
نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾

أتدعون بعلا : البعل هو الذّكر من الزّوجين. ولمّا تُصوِّر من الرّجل الاستعلاءُ على المرأة فَجُعِل سائسها والقائم عليها يسمى باسمه كلُ مُستَعْل على غيره. فسمّى العرب معبودهم الذى يتقرّبون به إلى الله بعلا، لاعتقادهم ذلك

(١) صحيح البخارى ١/ ٢٠.

فيه[1] وقيل هو اسم صنم كان يعبده أهل مدينة بعلبك غربيّ دمشق[2].

فإنّهم لمحضرون : في عذاب الله[3].

سلامٌ على إلياسين : هو اسم إلياس، فقد كان فيما يقال يسمّى باسمين. إلياس وإلياسين، مثل إبراهيم وإبراهام. ويستشهد أصحاب هذا الرّأي على أنّ ذلك كذلك بأنّ جميع ما في السّورة من قوله: ﴿سلام﴾ فإنّه سلامٌ على النّبيّ الّذى ذُكر دون آله. فكذلك إلياسين إنّما هو سلامٌ على إلياس دون آله[4]. وكان بعض أهل العربيّة يقول : إلياس اسمٌ من أسماء العبرانيّة كقولهم إسماعيل وإسحاق. والألف والّلام منه[5] : ﴿سلامٌ على إلياسين﴾ كما يقال في إسماعيل إسماعين، وهي لغة بنى أسد. وأنشد بعض بنى نمير في ضبٍّ صاده:

يقول ربّ السّوق لمّا جينا** هذا وربّ البيت إسرائينا

ويقال : ميكال، وميكائيل، وميكائين، وإبراهيم، وإبراهام. وإسرائيل، وإسرائين. وطور سيناء، وطور سينين، وهو موضعٌ واحد. وكلّ هذا سائغ[6] وإلياس أحد أنبياء بنى إسرائيل[7] يُذْكر عن ابن مسعود وابن عبّاس أنّ إلياس هو إدريس[8].

وإنّ إلياس عليه السّلام لمن المرسلين الّذين أرسلهم الله تعالى إلى بنى إسرائيل. ويقال إنّه أُرْسِلَ إلى بعلبك ونواحيها[9] اذكر حين قال لقومه المشركين

---

(١) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «بعل» ١/ ٦٩.

(٢) تفسير ابن كثير ٧/ ٣٢.

(٣) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٦١.

(٤) انظر تفسير الطّبرى ٢٣/ ٦١.

(٥) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٦١.

(٦) تفسير ابن كثير ٧/ ٣٢.

(٧) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٥٨ وتفسير ابن كثير ٧/ ٣١.

(٨) انظر فتح البارى ٦/ ٣٧٣.

(٩) الجلالين.

هلاّ اتّقيتم عذاب الله تعالى بإفراده عزّ وجلّ بالعبادة. وسأل قومه في إنكار: أتعبدون صنماً تزعمون أنّه يقرّبكم إلى الله تعالى زلفى، وتتركون عبادة الله تعالى أحسن الخالقين الّذى خلقكم وصوّركم وأحسن صوركم وخلق كلّ شيء فقدّره تقديرا. أتتركون عبادة الله تعالى وإفراده عزّ وجلّ بها، وهو ربكم وربّ آبائكم الأوّلين، الّذى أسبغ نعمه على النّاس أجمعين.

كذّب القوم إلياس رسول الله تعالى إليهم، وأصرّوا على كفرهم وعنادهم حتّى لقوا الله تعالى مشركين، فإنّهم محضرون يوم القيامة في العذاب. إلاّ عباد الله تعالى المصطفين الأخيار الّذين أخلصوا العبادة لله تعالى فإنّهم في جنّات النّعيم.

وترك الله سبحانه وتعالى على إلياس عليه السّلام ذكراً حسناً وثناءً عاطراً لدى الأمم التّالية من أتباع النّبيّين والمرسلين، عليهم جميعاً صلوات ربّ العالمين وسلامه. وعلى إلياس عليه السّلام سلامٌ من الله تعالى وأمنٌ وطمأنينة.

إنّ الله تعالى كما أحسن الجزاء لإلياس عليه السّلام وللمؤمنين يحسن الجزاء لكلّ المؤمنين المتّقين في كلّ زمانٍ ومكان. إنّ إلياس عليه السّلام من عباد الله تعالى المؤمنين المخلصين الّذين اصطفاهم الله تعالى واجتباهم.

وَإِنَّ لُوطًا
لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا
فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم
مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾

وإنّ لوطاً عليه السّلام، لواحدٌ من المرسلين الّذين أرسلهم الله تعالى إلى النّاس. وهو ابن أخى إبراهيم عليه السّلام. وقرى قوم لوط في الأردنّ على طريق

قوافل المكّيّين الّذين كانوا يمرّون بهم في رحلة الصّيف إلى الشّام.

اذكر حين نجّيناه وأهله أجمعين من قَلْبنا قراهم رأساً على عقب، بسبب إصرارهم على الكفر، وعلى إتيان الذّكران في أدبارهم، إلاّ عجوزاً هي زوجة لوط عليه السّلام فقد كانت من الباقين في العذاب مع قومها الّذين تعاطفت معهم وتعاونت، فأصابها ما أصابهم. لقد أهلك الله تعالى قوم لوط، وقلب قراهم رأساً على عقب، وكانت زوجة لوط عليه السّلام ضمن الهلكى.

وإنّكم يا كفّار مكة، لتمرّون على قرى قوم لوط صباحاً ومساءً في أثناء سفركم إلى الشّام في رحلة الصّيف وعودتكم إلى دياركم. هلاّ استعملتم يا كفّار مكّة عقولكم استعمالاً صحيحاً فأدركتم أنّ الهلاك الّذى حلّ بأهل قرى قوم لوط كان بسبب إعراضهم عن دعوة لوط عليه السّلام لهم إلى الله تعالى، وإصرارهم على الكفر، والصدّ عن سبيل الله، وإتيان الذّكران، وقطع السّبيل، وعصيان الله تعالى ربّ العالمين.

ويلاحظ أنّ قرى قوم لوط عليه السّلام وآثارهم هي الّتى تكاد تكون الباقية والماثلة للعيان من بين آثار الأمم الّتى أهلكها الله تعالى وذكرتها السّورة الكريمة. لقد كان المأمول من كفّار مكّة أن يعتبروا ويتّعظوا.

وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾

وإن يونس لمن المرسلين: أُرْسل إلى أهل نِينَوَى من أرض المَوْصِل[1] وفي

(١) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٦٧.

الصّحيحين عن رسول الله ﷺ أنّه قال: ما ينبغى لعبدٍ أن يقول : أنا خيرٌ من يونس بن متّى(١).

إذ أبق : حين فرّ(٢) وهرب(٣).

إلى الفلك المشحون : السّفينة المملوءة من الحمولة(٤) حين غاضب قومه لمّا لم ينزل بهم العذاب الّذى وعدهم به، فركب السّفينة، فوقفت في لجّة البحر. فقال الملاّحون: هنا عبدٌ آبقٌ من سيّده تظهره القرعة(٥).

فساهم : فقارع أهل السّفينة(٦) والسَّهم ما يُرْمَى به وما يُضْرَب به من القِداح ونحوه. واستهموا اقترعوا(٧).

فكان من المدحضين : فكان من المسهومين المغلوبين(٨) المقروعين(٩) المغلوبين بالقرعة فألقَوْه في البحر(١٠).

فالتقمه الحوت : فابتلعه الحوت وهو افتعل من اللَّقْم(١١).

وهو مليم : وهو آتٍ بما يلام عليه من ذهابه إلى البحر وركوبه السّفينة بلا

---

(١) تفسير ابن كثير ٧/ ٣٣ وانظر فتح البارى ٨/ ٥٤٣ حديث رقم ٤٨٠٤و٤٨٠٥ و٦/ ٤٢٨ حديث رقم ٣٣٩٥و٦/ ٤٥٠ حديث رقم ٣٤١٢و٦/ ٤٥١ حديث رقم ٣٤١٦.

(٢) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٦٣.

(٣) الجلالين.

(٤) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٦٣ والجلالين.

(٥) الجلالين.

(٦) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٦٣ والجلالين.

(٧) انظر مفردات الرّاغب الأصفهاني : «سهم» ١/ ٣٢٤.

(٨) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٦٣

(٩) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٦٣

(١٠) الجلالين.

(١١) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٦٣

إذن من ربّه[1] يقال : قد ألام الرّجل إذا أتى ما يلام عليه من الأمر وإن لم يُلَمْ فأمّا الملوم فهو الّذى يلام باللّسان ويُعْذَل بالقول[2].

فلولا أنّه كان من المسبّحين : الّذاكرين بقوله كثيراً في بطن الحوت[3] : ﴿لا إله إلاّ أنت سبحانك إنىّ كنت من الظّالمين﴾[4].

للبث في بطنه إلى يوم يبعثون : لصار بطن الحوت قبراً له إلى يوم القيامة[5].

فنبذناه : فألقيناه[6] من بطن الحوت[7].

بالعراء : بالأرض الّتى ليس فيها شيءٌ ولا نبات[8] والأرض الّتى ليس بها نبتٌ ولا بناء[9] وبالسّاحل[10] وبوجه الأرض[11].

وهو سقيم : وهو عليل[12] كالصّبىّ المنفوس لحمٌ نيء[13] وكالصّبىّ المنفوس لم ينقص من خلقه شيء[14].

---

(١) الجلالين.

(٢) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٦٣

(٣) سورة الأنبياء ٨٧.

(٤) الجلالين.

(٥) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٦٥ والجلالين.

(٦) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٦٥.

(٧) الجلالين.

(٨) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٦٥.

(٩) تفسير ابن كثير ٧/ ٣٤.

(١٠) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٦٥.

(١١) الجلالين.

(١٢) الجلالين.

(١٣) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٦٥.

(١٤) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٦٥.

وأنبتنا عليه شجرةً من يقطين : وأنبتنا على يونس شجرةً من الشّجر الّتى لا تقوم على ساق. وكلّ شجرةٍ لا تقوم على ساقٍ كالدّبّاء والبطّيخ والحنظل ونحو ذلك فهي عند العرب يقطين(١) وكذلك كلّ شيءٍ ينبت ثمّ يموت من عامه(٢) وكثيرٌ من العلماء على أنّه القرع(٣) وذكر بعضهم في القرع فوائد، منها سرعة نباته، وتظليل ورقه لكبره، ونعومته، وأنّه لا يقربها الذباب، وجودة أغذية ثمره، وأنّه يؤكّل نيئاً ومطبوخاً بلبّه وقشره أيضاً. وقد ثبت أنّ رسول الله ﷺ كان يحبّ الدّبّاء ويتتبّعه من حواشى الصّحْفة(٤).

أو يزيدون : بل يزيدون(٥) ويقول ابن كثير(٦) :«قلت: ولا مانع أن يكون الّذين أرسل إليهم أوّلا، أُمر بالعود إليهم بعد خروجه من الحوت، فصدّقوه كلّهم وآمنوا به. وحكى البغويّ أنّه أرسل إلى أمّةٍ أخرى بعد خروجه من الحوت، كانوا مائة ألف أو يزيدون».

فمتّعناهم إلى حين : فمتّعناهم بحياتهم إلى بلوغ آجالهم من الموت(٧).

يلاحظ بشأن قوم يونس عليه السّلام أنّهم القوم الوحيدون بين الأمم المكذّبة الّذين قبل الله تعالى توبتهم حينما رأوا العذاب وكاد يحلّ بساحتهم. وقد تفضّل الحقّ جلّ وعلا، الّذى لا يُسْأل عمّا يفعل، بقبول توبتهم، لأنّهم كانوا صادقين في التّوبة والتّضرّع إلى الله جلّ وعلا الّذى لا ملجأ منه عزّ وجلّ إلاّ إليه. جاء في هذا المعنى قول الحقّ جلّ وعلا في سورة يونس(٨) :﴿فلولا كانت قريةٌ آمنت

(١) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٦٥.

(٢) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٦٥ وتفسير ابن كثير ٧/ ٣٥.

(٣) انظر تفسير ابن كثير ٧/ ٣٥ وتفسير الطّبرى ٢٣/ ٦٥و٦٦.

(٤) تفسير ابن كثير ٧/ ٣٥.

(٥) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٦٦.

(٦) تفسير ابن كثير ٧/ ٣٥.

(٧) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٦٧.

(٨) الآية ٩٨

فنفعها إيمانها إلاّ قوم يونس لمّا آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدّنيا ومتّعناهم إلى حين﴾.

وإنّ يونس عليه السّلام لواحدٌ من المرسلين الّذين أرسلهم الله تعالى إلى قومهم. ويقال إنّ هؤلاء القوم أهل نينوى من المَوْصل في شماليّ العراق. ويونس عليه السّلام هو ابن متّى كما جاء في الحديث.

اذكر إذ فرّ يونس عليه السّلام من قومه بدون إذن من مولاه جلّ وعلا بعد أن أصرّ قومه على الكفر وأنذرهم حلول عذاب الله تعالى بهم بعد ثلاث(١) إن هم أصرّوا على كفرهم، فتخلّف العذاب بإذن الله تعالى. لقد أَبَق العبد لله تعالى يونس عليه السّلام وغادر المدينة دون أن يأمره مولاه جلّ وعلا بذلك، واتّجه إلى السّاحل، وركب السّفينة الّتى كانت بإذن الله تعالى مشحونةً بالنّاس وموقرةً بالأحمال.

شاء الله تعالى أن يهيج البحر، وأن تلعب الأمواج بالسّفينة، وأن تطوّح بها الأعاصير، وكان ينبغى أن تخفّ حمولتها كيلا تغرق. ومن وسائل تخفيف حمولة السّفينة الاقتراع بين المسافرين، ومن ظهر اسمه تمّ إلقاؤه في البحر، والتّضحية به، في سبيل نجاة السّفينة من الغرق بمن فيها. وشاء الله تعالى أن يكون يونس عليه السّلام واحداً من المغلوبين، فظهر اسمه عليه السّلام في القرعة، فأُلْقي به عليه السّلام في عُرْض البحر الهائج المائج. بإذن الله تعالى ابتلع الحوت الضّخم يونس عليه السّلام الّذى أتى بما يلام عليه حينما ترك قومه وغادر المدينة وركب السّفينة بدون إذنٍ من مولاه عزّ وجلّ. ولم يفتر لسان يونس عليه السّلام من التّسبيح بحمد الله تعالى الّذى يجيب المضطّر إذا دعاه ويكشف السّوء، وبخاصة حينما كان عليه السّلام في بطن الحوت. وإلى خروج يونس عليه السّلام من المدينة دون إذن ربّه، وتضييق الله تعالى عليه، وتسبيح الله جلّ وعلا، واستجابة الله تعالى دعاءه وإنجائه من الغمّ، أشار الحقّ جلّ وعلا في قوله عزّ من قائل في سورة الأنبياء(٢): ﴿وذا

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ٥/ ٣٦٠.

(٢) الآية ٨٧و٨٨ والنّون: الحوت تفسير ابن كثير ٥/ ٣٦١.